الأخت باسمة الخوري الأنطونيّة

مقدمة

تأخذ الارشادات الأخلاقيّة والحياتيّة حيّزاً كبيراً في رسائل العهد الجديد عامّة وفي رسائل القدّيس بولس خاصّة. فكما هو معلوم يركّز القدّيس بولس في كلّ رسائله على عرض المبادئ اللاّهوتيّة من جهة، وعلى كيفيّة تطبيقها عمليّاً، بحيث يحيا المسيحي «لابساً» الربّ يسوع المسيح، و«عاملاً ضمن الجماعة إلى ما غايته السلام والبنيان المتبادل»، فيسبّح الجميع «اللّه أبا ربّنا يسوع المسيح بقلب واحد ولسان واحد».

لا تخرج الرسالة إلى الرومانيّين عن هذه القاعدة. لقد كتب بولس هذه الرسالة، وكان قد عاش خبرة رسوليّة طويلة وناضجة. لقد اختبر الافراح والصعوبات التي تواجه مَن يحمل بشرى الانجيل، فوصل إلى قناعة الضمير المرتاح، لأنّه قام بواجبه على أكمل وجه؛ «فمن أورشليم وفي نواحيها إلى إليريكون أَتْمَمْتُ القيام ببشارة المسيح» (روم ١٥:١٩). لقد أوصل الرسالة إلى شرق الحوض المتوسط، وترك لتلاميذه مهمّة إكمال العمل. إنّه الآن يحلم بحقل عمل جديد: «أمّا الآن، ولم يبقَ لي مجال عمل في هذه الأقطار، وأنا منذ عدّة سنين مشتاق إلى القدوم إليكم، فإذا ما انطلقت إلى أسبانية...، فإنّي أرجو أن أراكم عند مروري بكم» (١٥:٢٣).

فبولس إذاً لم يكن قد زار روما بعد عندما كتب هذه الرسالة. ليس هو مَن أسّس كنيسة روما؛ إنّه بالأحرى يكتب لكنيسة يبدو أنّها قد تأسّست منذ فترة ليست قصيرة، وأصبحت معروفة من كلّ الكنائس المنتشرة في الامبراطوريّة الرومانيّة، خاصّة وأنّها في العاصمة. لكن المشاكل لم تكن تنقصها، وقد عرف بها بولس أثناء وجوده في قورنتس، فأراد المساهمة في حلّها من خلال رسالة كتبها أثناء وجوده في قورنتس سنة ٥٧-٥٨.

تتعلّق المشاكل المطروحة في هذه الجماعة الرومانيّة بالتعايش الأخوي بين المؤمنين المسيحيّين من أصل يهودي، وبين مَن هم من أصل وثني. فالرسالة تلمّح مراراً إلى الثنائية يهودي-وثني (١٤:١-١٦؛ ٤:٩-١٢؛ الخ). يجهد الرسول في إيصال قناعته إلى مؤمني روما بأنّ القبول الأخوي هو أساس جماعة المسيح: «فتقبّلوا بعضكم بعضاً كما تقبّلكم المسيح لمجد اللّه. وإنّي أقول إنّ المسيح صار خادم أهل الختان ليفي بصدق اللّه ويثبت المواعد التي وعد بها الآباء. أمّا الوثنيّون فيمجّدون اللّه على رحمته» (١٥:٧-٩).

وضع كنيسة روما الاجتماعي

كما في كلّ مدن الامبراطوريّة الرومانيّة الكبيرة، كان اليهود يشكّلون جالية مهمّة في روما، ومن المؤكّد أنّهم شكّلوا النواة الأولى للجماعة المسيحيّة التي نمت وكبرت في ما بعد. وقد انضمّ الوثنيّون إلى هذه الجماعة في فترة لاحقة وبأعداد من الصعب تحديدها. ولكن اليهود تعرّضوا للطرد من روما سنة ٤٩، على أثر المرسوم الذي أصدره الامبراطور كلوديوس (أع ١٨:١-٢)، ممّا أثّر على اليهود الذين آمنوا بيسوع، فتركوا المدينة هم أيضاً، فيما بقي المسيحيّون من أصل وثني. صحيح أن المرسوم توقّف بعد زمن، واستطاع اليهود أن يعودوا إلى مدينتهم، ولكن الأحوال تغيّرت، فأصبح التعايش صعباً وهشّاً، وظهر خطر عدم القبول بين الفئتين، بحيث أرادت كلّ فئة أن تحيا

الفئة الأخرى بحسب قوانينها وطريقتها. لقد أصبحت الكنيسة الرومانيّة تواجه خطر الانقسام إلى جماعتين، تنحدر الأولى من أصل يهودي، وتمارس إيمانها بيسوع محافظة على شريعة موسى التي تغلق الباب في وجه كلّ وثني راغب بالانضمام إلى جماعة المسيحيّين، والأخرى تعود إلى جذور وثنيّة قطعت كلّ الروابط بينها وبين المسيحيّين من أصل يهودي. إنّ خطراً كهذا ليس بسيطاً، لأنّه قادر على نسف أهمّ الأسس للحياة الكنسيّة.

إنّ مواضيع الرسالة إلى الرومانيّين مشابهة لما نقرأه في الرسالة إلى الغلاطيّين، لكن الأولى تتميّز بأسلوبها الهادئ: ليس الكاتب طرفاً في النزاع، وبالتالي فهو يكتب بطريقة موضوعيّة منطقيّة، فيعرض المشكلة المحدّدة في الزمان والمكان، ويعطي حلاً لاهوتيّاً يصح لكلّ زمان ومكان.

١ – «مَن أنت لتدين خادم غيرك!» (٤:١٤)

تشكّل روم ١٤:١–١٥:١٣ قسماً واحداً ضمن الرسالة إلى الرومانيّين، يعالج فيها القدّيس بولس مشكلة علاقة «القوي بالضعيف» داخل الجماعة الكنسيّة الواحدة. والأمور المطروحة لا تبدو جديدة أو خاصّة بالجماعة الرومانيّة؛ فمسألة الأكل أو عدم الأكل تظهر في ١ قور ١٠:٢٣–٣٣ وغيرها؛ ومسألة تمييز الأيّام نجدها في غل ٤:١٠؛ كول ٢:١٦، ١٧؛ وتدين كول ٢:١٦، ٢٠–٢٣ بقسوة كبيرة المغالاة في مراعاة النواحي المتعلّقة بالأكل: «لا تأخذ، لا تذق، لا تمسّ»، ويخاف من أن يكون قد «أجهد نفسه عبثاً من أجلهم»، إذ يراهم قد عادوا إلى «الأركان الضعيفة الحقيرة» (غل ٤:٩). ويعطي بولس في كول ٢:٢٠، ٢٣ المعنى العميق لحرمان النفس من علاقتها مع المسيح: «أما وقد متّم مع المسيح عن أركان العالم، فما بالكم كما لو كنتم عائشين في العالم تخضعون لمثل هذه النواحي...؟ إنّها وصايا لها ظاهر الحكمة...، ولكن لا قيمة لها، لأنّها غير صالحة إلا لإرضاء الهوى البشري».

لا نجد هذه القسوة في الرسالة إلى الرومانيّين، بل نجد بولس يتكلّم بتفهّم وحنان، ممّا يعاكس موقفاً مغايراً عمّا اختبره في رسائله الأخرى: «تقبّلوا ضعيف الايمان» (١٤:١)؛ «من الناس مَن يميّز بين يوم ويوم، ومنهم من يساوي بين الأيّام كلّها. فليكن كلّ منهم على يقين من رأيه» (١٤:٥).

فإن كان المتهودون في الرسالة إلى الغلاطيين يحاولون تغيير جوهر الانجيل بتبشيرهم بضرورة المحافظة على الشريعة اليهوديّة ومراعاة الأيّام والفصول كضرورة أساسيّة للتبرير، وإن كان أصحاب البدع في كولوسي ينشرون الأفكار الغنوصيّة المنادية بأنّ التبرير الروحي يمرّ بالمادة، بحيث يجبرون الناس على التقشف والحرمان، وعلى عبادات الأرواح والملائكة كوسطاء بين الناس والله، فإنّ الإطار في الرسالة إلى الرومانيين يختلف تماماً. إن المشكلة ترتبط بعبادات وتقاليد المؤمنين المتحدّرين من أصول مختلفة[١].

في محاولته لحلّ هذه المسألة، يتوجّه بولس أوّلاً إلى الأقوياء في الايمان، وهم الذين وصلوا إلى حالة من النضوج الروحي، فهموا من خلاله أنّ المؤمن إنسان حرّ، يستطيع أن يحيا بحسب قناعات ضميره، متحرّراً من الشرائع الضيّقة. من هؤلاء يطلب بولس قبول ضعيف الايمان الذي «لا يأكل إلا البقول»، و«عدم مناقشة آرائه»، بحيث لا يفسد الواحد فكر الآخر، وتكون الآراء المختلفة سبباً للخلاف، بل الأحرى أن يحترم الواحد فكر الآخر، لأن القوّة لا تكمن في كيفيّة العيش، «الأكل أو عدم الأكل»، بل بالقبول المتبادل دون «ازدراء» ولا «إدانة».

من هنا نجد أنّ بولس، بعد أن توجّه أوّلاً إلى الأقوياء، يتحوّل سريعاً إلى الفئتين ليطلب من الجميع وبالقوّة عينها أن يقفوا أمام الله، ويعودوا إلى إيمانهم الحق، فيتذكّروا أنّ الله هو الديّان الأوحد، وهو مَن سيحاسب كلاًّ بحسب قناعات ضميره وبحسب محبّته. وبالتالي فإنّ من يبتسم ابتسامة الازدراء بوجه مَن لا يأكل، لا يختلف عمَّن يطلق الاتّهامات دائماً مَن يأكل. إنّ التبرير يأتي من الله وحده، وله وحده يقدّم الجميع أعمالهم وعباداتهم.

إنّ الله قد تقبّل الضعيف كما القوي، ولهذا يصرّ بولس على الطلب من الجميع أن يقبلوا بعضهم بعضاً. فإن كان الله قد تقبّل بمحبّته مَن يأكل، فكيف

١– يمكن أن نفهم من مسألة الأكل أنّ الوضع مشابه لما نقرأه في ١ قور ٨ حيث يعالج بولس مشكلة اللحوم المقدّمة للأصنام، وإن كان يحلّ للمسيحيّين أكلها. لكن من يسمّيهم بولس الضعفاء في روم ١٤ يختلفون عن المذكورين في ١ قور ٨، بحيث لا نجد في روم ١٤ ذكراً لأي أكل وشرب مقدّمين للأصنام؛ ولا نجد في ١ قور أبداً موضوع التمييز بين الأيّام؛ كما وان المعيّنين في روم ١٤ لا يأكلون إلاّ البقول. إنّ الوضعين مختلفان تماماً.

يمكن لإنسان رفض ما قبله اللّه؟ وهل نحن أقدس من اللّه؟ «إنّه سيثبت لأنّ اللّه قادر على تثبيته» (١٤:٤). فإن كان ربّ البيت هو المسؤول الأوّل والأخير عن ثبات خدمه، بغضّ النظر عن رأي باقي الخدم؛ فإنّ ربّ الكنيسة هو المسيح، وهو بالتالي القادر وحده على تثبيت أيّ مؤمن كان، فلا يجوز إذاً لأيّ خادم أن يدين خادماً آخر بحسب قوانينه الخاصّة، بل يجدر به التعامل مع أقرانه بحسب قوانين سيّده فقط، أي في إطار العلاقة مع المسيح. في روم ١٤ ينظر «الضعيف» إلى ممارسة «القوي» لحريته وكأنّها خيانة للمسيح، وبالتالي كأنّها طريق للهلاك، فيعلن الرسول أن هذا المنطق خاطئ تماماً، لأنّه يجب أن يكون معكوساً، بحيث يكون قبول المسيح للمؤمن هو الأساس وليس الممارسات، «لأن الربّ قادر على تثبيته». إن قدرة المسيح هي وحدها القادرة على التثبيت.

ويتطرّق بولس إلى نوع آخر من الممارسات، وهي المتعلّقة بمراعاة تمييز الأيّام: «من الناس مَن يميّز بين يوم ويوم، ومنهم مَن يساوي بين الأيّام كلّها» (١٤:٥)، فيعتبر أنّ «الضعفاء في الايمان» يراعون حتى الآن التمييز بين أيّام وأخرى، لأنهم لم يعوا بعد ما ترتّب على الانتقال من العهد القديم إلى العهد الجديد من حرّية. ولكن، مع ذلك، يجب على الأقوياء قبولهم: «فليكن كلّ منهم على يقين من رأيه»، لأنّ كلّ مؤمن يعمل بما هو مقتنع أنّه إرادة اللّه عليه، وكلّ عبادة مرتبطة بالرب وحده (١٤:٦-٨)»[٢]. من هنا، فإنّ مَن يأكل يشكر اللّه على عطاءاته الكثيرة، كي يكون الانسان مكتفياً فرحاً، فهو إذاً يأكل طاعة لإرادة اللّه الذي قدّم له المآكل، وشكراً له وبركة، لأنّه قدّس كلّ المآكل بخلقه إيّاها لخدمة الانسان[٣]. ولكن خدمة اللّه هي أيضاً قناعة «الضعيف الذي لا يأكل»: «مَن لا يأكل من كلّ شيء، فللربّ لا يأكل، وهو يشكر اللّه على «البقول» المقدّمة له لشبعه.

إنّ المؤمن، أيّاً كان أصله، يحيا للرب وليس لذاته (١٤:٧)، وكلّ ما يقوم به في حياته هو لمرضاة الرب بحسب ما اختبره بيسوع المسيح. فالمسيحي لا يعرف إرادة اللّه إلا من خلال إيمانه بالرب يسوع وطاعته له، وكل تصرّف بالتالي يحب أن يكون تكملة لإرادة الربّ، بحيث يكون الموت عينه تتميماً لإرادة الرب، وتكملة لحياة الطاعة التي يحياها المؤمن، بحيث لا يقطع الموت هذه الحياة، بل يتمّمها: «سواء حَيينا أم مُتنا، فإنّنا للرب» (روم ١٤:٨).

هنا أيضاً يكمن الجوهر في قناعة المؤمن وليس في الممارسات، لأنّها تعبير عن القناعة، وليست هي الجوهر الذي يكمن في العلاقة مع المسيح وفي التكرّس له: «اننا للرب»[٤].

إنّ في ازدراء القوي للضعيف، وإدانة الضعيف للقوي، تعدّياً على مسؤوليات الربّ وخصوصيّاته. كلّنا سنقف أمام الربّ للمحاكمة، وكلٌّ منّا سيؤدّي حسابه، ليس لأنسان آخر بل للّه نفسه؛ فالأحرى بكل مؤمن أن يُحاسب ذاته بنفسه على ضوء ما سيؤدّي أمام اللّه.

٢- المحبّة على مثال المسيح هي الشريعة الأولى والأخيرة (١٤:١٣-٢٣)

من أجل حلّ الخلافات الناجمة عن الاختلاف في الرأي، يسعى الناس عادة إلى تقليص مسافة الخلاف بين الآراء، بحيث يصل المختلفون إلى نقطة واحدة يتّفقون عليها فيزول الخلاف. إنّها طريق المنطق والحكمة. لكن الأخلاقية المسيحيّة لا تؤدي إلى الحكمة المنطقيّة بين المختلفين. إنّ المحبّة التي تخلق الروابط هي التي تربط بين الإرادات المختلفة. إنّ ذبيحة المسيح المرتكزة على محبّته الكاملة هي الشاهدة على أنّ قوّة المحبّة هي التي تعطي لكلّ إنسان حقّه في حريّة ضميره ومسؤوليّته: في هذا يكمن احترام الانسان كإنسان.

من هنا يعود بولس في هذا القسم (١٤:١٣-٢٣) للتوصية بالمحبّة تجاه مَن يخالفني الرأي، خاصة إن كان أخاً ضعيفاً لا يستوعب معرفتي. إنّ خطيئة «قويّ الايمان»، بحسب القديس بولس، هي في تسبّبه بصدمة أو عثرة لأخيه «الضعيف». فإنّ القويّ، بعدم تنازله

٢- في بعض الرسائل الأخرى (غل ٤:١٠، ١١؛ كول ٢:١٦، ١٧) يدين بولس مراعاة الأيّام بسبب ارتباطها ببعض البدع. لكن هذه المراعاة لم تكن ترتبط في كنيسة روما بأي بدعة؛ من هنا فإنّ بولس يردّد في روم ١٤:٦ عبارة «في الربّ»، وفي ذلك تأكيد على ارتباط كل الممارسات المختلفة في كنيسة روما بعبادة الربّ يسوع وبخدمته وحده.

٣- أنظر ١ تيم ٤:٤، ٥؛ متّى ١٥:٣٦؛ أع ٢٧:٣٥؛ ١ قور ١٠:٣٠.

٤- لقد غيّرت هذه القناعة نظرة بولس للموت، فلا يتكلّم عنه كقصاص عن خطيئة أو كعدو انتصرت عليه القيامة (٢ قور ٥:٤؛ عب ٢:١٤، ١٥)، بل ينظر إليه من خلال إيمانه بالمسيح الذي مات، ومن خلال رجائه بالحياة التي سيعطيها بقيامته. لقد أصبح الموت لا قصاصاً بل اشتراكاً في موت المسيح، ممّا جعل بولس يتمنّى «الرحيل ليكون مع المسيح» (فيل ١:٢٣).

عمّا هو سبب عثرة للضعيف، يضع حاجزاً أمام قناعاته الدينيّة.

إنّ الأخ «الضعيف» مؤمن بأن بعض المآكل والمشرب مرتبط بشكل ما بالشرير؛ فاستعمالها إذاً يتناقض والأخلاقيّة المسيحيّة؛ فيما يعرف «القوي» علم اليقين، وذلك استناداً على قول الربّ يسوع بأن «لا شيء نجس بحد ذاته» (مر ٧:١٥؛ لو ٦:٤)، ممّا يسمح له بأكل كلّ شيء، وبولس أكيد من هذا الأمر ويوافق عليه تماماً. ولكن الأحرى بـ «القويّ» مراعاة قناعات الأخ «الضعيف» بغضّ النظر عن قيمة الأشياء. فإن تكن الأشياء غير نجسة بحد ذاتها، لا يعني أنّها حلال للجميع. فعلى كلّ مؤمن مراعاة قناعات الآخرين: «نحن نعلم أن لا وثن في العالم، وأن لا إله إلاّ اللّه الأحد» (١ قور ٨:٤، ٧)، ولكن يجب أن نعرف أن «المعرفة ليست لجميع الناس»، فالاختلاف هو إذاً بين المنطق الموضوعي والقناعات الشخصيّة. فإنّ في حزن الضعيف لتصرفات القوي خرقاً من قبل الأخير لقاعدة المحبّة. ولربما ظنّ القوي أنّ في تصرّف الضعيف عدم احترام لحريّته، وهذا مُحقٌّ. فيؤكّد بولس أنّه، أمام هذا الموقف، يبقى «على القوي أن يحمل ضعف الضعيف» (روم ١٥:١-٢)، «وليسعَ كلّ واحد منّا إلى ما يطيب للقريب في سبيل الخير»، خاصّة وإن خطيئة الأقوياء بتشكيكهم ضمائر إخوتهم تؤدي بهؤلاء الإخوة إلى الهلاك الروحي والأخلاقي. إن الضعيف يحزن إن تشكك ضميره وقناعاته الدينيّة.

فبسبب ضعفه، يمكن للضعيف أن يتبنّى ممارسات القويّ دون اقتناع، ممّا يؤدّي به إلى الهلاك، لأن «كلّ شيء لا يأتي عن يقين هو خطيئة»[٥].

وبربطه هذه النتائج بموت المسيح، يذكّر بولس الأقوياء بأمرَين: محبّة المسيح للضعفاء، وتخلّي المسيح عن حياته في سبيلهم. فكم يجدر بالقوي أن يتخلّى عن بعض المآكل والمشروبات وعن بعض الممارسات في سبيل مَن جاد المسيح بنفسه من أجلهم! «فإن حَزِن أخوك بتناولك طعاماً، فلم تعد تسلك سبيل المحبّة»، فهلاك الضعيف إذاً سيطال القوي أيضاً، لأنّه لم يسلك في المحبّة. فإن كان من حق القوي أن ينعم بممارسة حريته بحسب قناعاته الدينيّة، فإن كان في هذه الممارسات هلاك للآخرين، يتحوّل الشكر للّه طعناً بعطاياه، وهذا ما لا يجوز. «إنّ ملكوت اللّه برٌ وسلام وفرح بالروح القدس»، وعليه فإنّ على المؤمنين أن يعيشوا هذه الصفات كي يظهروا أنّهم أبناء هذا الملكوت (يو ٣:٣-٨؛ ١ تس ٢:١٢). إنّ تحوّل المأكل والمشرب إلى الهمّ الأوّل يعني ابتعاد المؤمن تماماً عن أولويات ملكوت اللّه، وابتعاد مسلكه عن الشكر الذي يؤديه للّه (رج متّى ٦:٣١-٣٣). إنّ المطلوب من المسيحيّين هو أن يحيوا «السلام والبنيان المتبادل»، أي بنيان الوحدة والتناغم في العلاقات بين بعضهم البعض، فلا تتسبب الممارسات اليوميّة بهدم هذا البنيان.

ويطلب بولس من الأقوياء عدم نشر معتقداتهم والتبشير بها: «أما يقينك فاحفظه في قرارة نفسك أمام اللّه»، لأن حريّة أبناء اللّه، وإن كانت حقاً مُكْتَسبًا لهم، يمكن أن تكون سبب عثرة للإخوة.

وهكذا يشدد بولس مرّة أخرى على أن التصرف بحد ذاته ليس خطيئة، لأن ما يعطيه المعنى هو قناعة من يقوم به. فالقوي الذي يتصرّف بحريّة بحسب قناعته يأخذ الطوبى من اللّه (١٤:٢٢)، في حين يدان الضعيف الذي يتصرّف بحريّة ضد قناعته (١٤:٢٣).

٣- «لتمجّدوا اللّه... بقلب واحد ولسان واحد» (١٥:١-١٣)

يضع بولس نفسه في خانة الأقوياء داعياً إيّاهم للتعلّم من الكتابات المقدسة ومن المسيح يسوع الذي تصرّف في حياته الأرضيّة بحسب إرادة أبيه لخير الانسانيّة وليس لمصلحته الخاصّة، فجعل من ذاته قدوة للتصرّف أمام المؤمنين.

لقد جعل الربّ يسوع من خلاص الناس بحسب إرادة الآب أولى اهتماماته رغم التعييرات (مز ٦٩:١٠)، فلنا فيه القدوة والقوة، خاصة وأن الكتب المقدسة تشددنا في ذلك لنحيا جميعاً الرجاء. إنّ اللّه هو إله الثبات وهو القادر على إعطاء هذه النعم لجميع المؤمنين، أقوياء وضعفاء، فيتفق الجميع على تمجيده «بقلب واحد ولسان واحد». إنّ إنجيل المسيح قادر على اسقاط كلّ الحواجز، وعلى جعل المؤمنين المختلفين جماعة واحدة.

٥- «فلا تهلك». إنّها إحدى النتائج الخطيرة التي تنجم عن تشكيك ضمير الأخ الضعيف (متّى ١٠:٢٨؛ ١٨:١٤؛ لو ٩:٢٥؛ ١٣:٣؛ يو ٣:١٦؛ ١٠:٢٨؛ روم ٢:١٢؛ ا قور ٨:١١؛ ١٥:١٨؛ ٢ قور ٤:٥؛ ٢ بط ٣:٩).